قصة قصيرة

على الحافة

ادوار الخراط

أرى المئذنة القديمة ترتفع ، بصعوبة ، فوق أنقاض الجامع الذي لم تبق من جدرانه العريقة الا أكوام من أحجار ضخمة . على حافة شرفتها المكسورة ، قريبا جدا مني ، أمام عيني ، يقف الغراب ، أسود اللون تماما . حتى منقاره المدبب كان حالك السواد ، مطبقا .

وانتظرت ، وأنا أكاد ألمس بيدي دقات قلبي ، فلم ينعق الغراب .

كان راسخا ومطوي الجناحين ، كأنه حجر ، لولا أن عينيه تتقدان بنار مركزة ، فصان من جوهر دجيّ .

وتجيش في قلبي ، فتنة ، ونفرة . ولكنني مرصود .

كنت قريبا جدا ، لاول مرة بهذه القربى ، من شيء له كل هذه الغرابة ، وكل هذه الالفة معا . كأنما كنا معا في حلقة مضروبة علينا ، بلا فكاك .

وعرفت أنني عدت الى غمرة سنوات الحب الاخرس وأشواق الصبا التي لا مثيل لنور سذاجتها ، أن تكون هذه الارض هي أرض العدالة وأن تعود الى الناس .

كنت قد خرجت الى جسر النيل ، في عز الظهر ، ومجد الامواج الحمراء يتقلب في عرامة الفيضان . السماء المحترقة بالنور ، والاشجار الهفهافة ، وبيوت الفلاحين المكومة ، كلها معقودة أمام عنفوان هذا الانصباب الذي يدمدم بين جسوره العالية، فيفرض على كل شيء مهابته.

وكانت الغربان تعرف ، مثلي ، شجرة السنط الوحيدة على رأس الجسر الحجري الممتد قليلا الى داخل النهر . كانت المعدية الصغيرة تخرج منه الى الشط الاخر البعيد ، في التحاريق .

أما الان ، وحتى تخفت غضبة الفيضان ، فهي مقلوبة على بطنها ، متربة .

كنت أتسلق جذع الشجرة المتلوي وأنتزع السائل اللزج من جلدها العتيق ، فيتماسك قوامه بسرعة بين يدي ، بعد أن أجرحها في رفق ، كأنها جراح الحب . وكانت الغربان تأوي الى فروعها النحيلة ، وتتنادى بصرخات لم يكن يخيفني نعيبها ، وتخفق بأجنحتها السوداء ، سحابات حية . وكأن هذه الغربان فهمت ، وكأنها تسخر من نفسها ، معي . لكننا لم نكن قط أصدقاء . وكان الغراب الحالك السواد هو شيخها ، ويعرفني .

أقف ، بلا حراك ، تحت المئذنة . لا أستطيع ان أحول بصري عن الغراب ، وحدنا في العالم كله .

في جدار المئذنة نافذة دائرية منقورة في الحجر الكثيف ، سدت بألواح من الخشب الخشن ودقت عليها المسامير . ورأيت ، قريبا مني جدا ، صدأ الرؤوس الحديدية الغليظة ، تآكلت حوافها ، وألياف الخشب القديم قد اسودت بطبقات من تراب المقطم وعادم السيارات . الهلال المعدني بعيد فوق ذؤابة المئذنة معوج القوس . كأنني سمعت نفسي أقول لنفسي : سقطت كبرياؤه .

وشب الغراب الضخم ، على غير انتظار ، دون أن يصطفق جناحاه ، دون أن يبسطهما ، واصطدم ، دون صوت ، بالخشب الذي يسد النافذة ، وغاب فيها ، اخترقها ، دون أن ينفتح له فيها أدنى شرخ . ما زالت النافذة مسدودة .

صلصلت أجراس مترو حلوان وهو يتدحرج على قضبانه ، بقلقلة يهزم هديدها فجأة ، وأعرف بلا دهشة أنه يتجه الى المقابر . نفثت السيارات المتلاصقة المقتحمة بمقدماتها في كلّ اتجاه ، نافذة الصبر . الحوذي القصير المتين يشب على عربته الكارو التي تنوء بأسياخ حديد التسليح المشعثة ، ويثبت قدميه بمقدمة العربة المتأرجحة ويشد العنان ليوقف حصانه الكثيف الكفل . الحصان المغمّى العينين يزفر فجأة في صدمة الكبح التي لا تطاق. الناس ينسكبون سيلا واحدا بلا انتهاء ، فرادى ولكن في مجموعات متدافعة ، ينثالون ، كالعجين الكثيف ، بين السيارات وجنب خيل العربات وفوق القضبان وعبر الارصفة وتحت الدكاكين وعلى أبواب البيوت ، في الحر والعرق والتراب وضجة النهار المتنافرة الاصوات .

في قلب هذا الانهمار من زحمة الناس ، عالم آخر، منفصل ولكنه وثيق الصلة بنياط قلبي ، أعرف أنه عالمي الذي ليس لي غيره . فقط أحس بضغطه يزداد فداحة ، وأعرف أنني لا أريد الخلاص من هذا الثقل .

وقبل أن تند عن حلقي المسدود صرخة كابوس الفجر المعتادة التي أعرف أنها قادمة الان ، تبدأ متحشرجة ، ثم تنفجر ، تدوّي في الصمت بجنون لا يعي شيئا ، بجموح يهتز له أول الصباح ، قبل أن ينفلت الوحش المتربص دائما في قلبي يكسر شرخا في جداره بصيحة زئيره المتصلة ، وجدت نفسي أسقط فجأة ، درجة كاملة من درجات هذا العالم ، لم أترك المئذنة القديمة ولا ضجيج الناس المحتشد وكنت ، في الوقت نفسه ، في مساء « الطرانة » ومعي لينده ، أمام الغيطان .

لاول مرة وحدنا ، نسير على جسر النيل ، ونعرف أن الحقول حوالينا خالية . الحدأ والغربان تطوّف فوقنا في السماء الحارة التي تستروح طراوة الغروب .

وكنا معا ، دون كلام ، نسترق النظر الى الغيطان ، نستوثق أنه ليس فيها أحد من الفلاحين . كنا قد خرجنا وحدنا دون أن نقول لاحد . وكنت أحس في هذا ما يشبه الجريمة أو المروق ، على الاقل .ولو عرف الاهل فماذا يمكن أن يحدث ؟ كان هذا الخوف يحفز القلب ، والمغامرة غير محسوبة الوقائع .

كان التراب الهش يثور تحت أقدامنا في هبوات ترتفع قليلا ثم تنعقد لها سحابات صغيرة حول أرجلنا ، وكانت هجسات مولد الصبا الصعب تملأ نفسي برغبات لها ثقل يهبط ببطء كأنما لن يصل أبدا الى قرار .

كانت ليندة تدفع بساقيها في الشبشب الذي يبدو ثقيلا وأجنبيا وغير مستقر في قدميها ، فقد كانت تمشي ، عادة ، حافية .

وقلت لنفسي : ومع ذلك فقد كان أبوها صرافا محترما ولها أولاد عم في الهندسة والزراعة .

وكانت كل يوم تفسل قدميها وتحكهما بالحجر الخفاف حتى يحمر الجلد ويعود الى نعومته . دخلت مرة الى بيتهم في الليل ، وكانت عارية الساقين أمام الطشت وبيدها الابريق . ورأيت نعومة ساقيها كأنما أحسستها بعينيّ . وعندما كنا نجري ونحن نلعب عساكر وحرامية مع أولاد العائلة وبناتها ، كنت أتعمد أن ألمس قدميها بقدمي الحافيتين أيضا .

كانت لها ضحكة من القلب تنطلق دون عناء ، من فيض السعادة بالشراب . ضحكة بنت تشتعل بنضوج أنوثتها . بينما كنت لا أعرف كيف أضحك .

كنا ننزل الان ، نكاد نتدحرج ونقع ، بسرعة متزايدة الايقاع ، من حافة الجسر الى فسحة من الارض على الشط مباشرة . وسمعت غرغرة المياه الحمراء وهي ترتفع بالفيضان ، كأنها محسوسة ، تحت شقوق الارض التي تتسع رقعة البلل فيها ، غدا سوف تغيب تحت المياه المتصاعدة .

كان المغرب ساكتا الا من نعيب الغربان على شجرة السنط العالية ، يصل الينا من بعيد . وكانت هذه الناحية من الجسر على غير طريق عودة البهائم من مرعاها فهي صامتة وموحشة ، وكنت أحس الغيطان منهكة بعد صهد النهار . شواشي الذرة لها وشوشة ، حفيف لا يكاد يستبين .

وكأنما على هذا الجسر نفسه ، وكأنما على مقربة من شجرة السنط هذه نفسها ، وقف محرك السيارة فجأة وهبط طنينه الى الصمت . كان الطريق في أول الليل سخنا من حر يونيو الثقيل ، يمتد بين سور منخفض وبيوت المقابر التي تبدو مبهمة ملتبسة ، أبوابها الحديدية على شكلَ غصون متعرجة وأزهار يومض من بينها المغبب القاتم . امتدادات الارض تتناثر عليها الشواهد القائمة والمائلة ، والمكعبات المحدبة ، مصفوفة ومتناثرة ، أطول قليلا من الجسم المدفون ، وبينها فراغات مرهوبة . وكانت القباب العالية من ورائها كتلا من المعمار كأنما لا وزن لها، تسبح ، داكنة ، بازاء السماء التي تبدو خاوية وخفيفة. صخور المقطم معتمة وناتئة الحواف ، ومصابيح الشوارع الصاعدة ، متباعدة ، بقعا مدورة بضوئها الازرق الباهت.

عندما فتحت باب السيارة كان انتفاضها المتوتر قد خبأ أخيرا . وسقطت قدمي على الطريق كأنما بلا انتظار ، كان الطريق أخفض قليلا مما توقعت ، وثارت تحت خطوتي عفرة صغيرة ظلت معلقة حول ساقي ، ونفضت رجل البنطلون وسمعت السائق :

— قرني بيته بعيد يابيه .. والسيارة ليست لها سكة هنا بعد الان .

قلت : لا يهم .. نسير على أرجلنا .. باللهبنا .. على بركة الله .

ثم قلت : اللهم أن نعثر على المفتاح .

وفكرت أن أمامي ليلة طويلة من العمل ، من وراء زجاج النوافذ المسدلة عليها ستائر سوداء متهافتة القماش . وقلت لنفسي : ان البرقيات يجب أن تصدر في الصباح ، من غير جدوى ، الى كل العناوين في مشارق الارض ومغاربها تستصرخ بيأس صادق، وتعلاّت كاذبة ، وفكرت أن الصحراء في هذا الليل بلا رحمة ، وكنت أمقت السماء وهي تنقض على جسمي الذي لا منعة فيه ، في هذا العراء .

لم نكن قد عثرنا على المفتاح ، وقلنا ان هناك نسخة منه مع الخفير الذي يسكن في بيوت المقابر ، وقلنا نذهب اليه اذن ، ثم نستدعي دورية السهر بالتليفون بعد أن

نعود . وكنت أعرف وأنا على أول طريق المقابر الموحش اننا لم نرسل البرقيات قط ، في الصباح التالي ، وكنت عندئذ أحس أنفاس القاهرة المحبوسة تتردد في صدري ، والمدينة التيأصبحت شاسعة صامتة كما لمأعرفها تصمت أبدا ، والاوتوبيسات الثقيلة الحمراء تنطلق بهوج في الشوارع الساكتة وتميل بجانبها من السرعة ، نصفها فارغ وركابها لا يتكلمون . وكنت أرى الهواء الذي يخشخش بورق الصحف والتراب الخفيف على الاسفلت. كانت الميكروفونات تردد في هذا الصمت بيانات قديمة ميتة لا يسمعها أحد . كان توقع وصول المساء يثقل القلوب بعبء قابض .

وقفت من جديد تحت شجرة السنط القديمة وقد غلظ جذعها ، وثقلت فروعها ، وتراكبت، وهي الان تصعد من تراب الجسر الذي لم يعد يُدكّ بالحجر والطوب وظهرت فيه حفر هشة ، وامتد الى جانبه طريق جديد مسفلت في وسطه خط عريض من أثر جريان عجلات السيارات ، وعليه أعمدة رفيعة في كل منها مصباح كهربي واحد صغير أصفر مشتعل في عز النهار . كان النيل قد روّض الان ، وصمت ، وينسكب نحيلا ومنخفضا . وقلت لنفسي هلّ انقضى فعلا عصر الرؤى، وانكسرت ؟ وقلت لنفسي : لا أعرف بعد كيف أخلص من الاحلام الرثة ، وقوالب الكلام .

كانت قد جفت قشرة هذه الاحلام وتخمرت عجينتها الدفينة ، وكنت أحسها دفيئة وموجعة كجراح الحب . ومددت يدي الى الشجرة العجوز وعرفت أن عصاراتها قد يبست . طالما صنعت من كرياتها ملء زجاجات الصمغ عاما بعد عام ، الصق بها في كراسات المدرسة صور ديستويفسكي وعرابي والطهطاوي وتروتسكي وشيكسبير .

كانت الشجرة مهجورة ليس عليها غراب واحد ، ولا تدور حولها العصافير الصغيرة القلقة التي لم أعرف أبدا ما اسمها .

فاجأني السكون المطبق على كل شيء ، جسر النيل، وسعة الغيطان ، وحواري القرية ، وحنفية الماء المكرر الذي يتقطر على التراب ، كلها صامتة الان .

أزيز عجلات سيارة فيات لامعة تمرق فجأة بجانبي كأنها تسير في فلك خاص محاذ للنيل ولكن لا صلة بينهما ، وسلسلة من سيارات النقل المرتفعة الجدران لها مقطورات مسطحة ، حمولتها مربوطة بحبال قوية ، وفوقها حمال خاسف الجسم نائم كأن عظامه مكسورة ومكومة ، يطير الهواء بجلبابه الذي لا لون له .

كان هذا الصمت منذرا . لم أرَ في السماء الحدا المترصدة التي كانت تحلق في دوائرها الواسعة ، ولا الهداهد التي كانت تنتقل بسرعة من الغيطان الى الشجر، ولا مجمع الغربان .

وسمعت نفسي أسأل : أين الطيور ؟ أين هدهد سليمان ؟

وقال قريبي وهو الان في بكالوريوس العلوم : طبعا يا سيدي اختفت .. المبيدات الحشرية .

وطاف بذهني من غير مناسبة انه في الاحلام تأتي كلمات وأفكار كل يوم ، وكأننا في الحلم نزجي وقتا مملا بكلمات لا نقصد منها شيئا .

وقلت لنفسي : قطن الحكومة له ضريبة فادحة .

عندما وصلنا الى عجلة الساقية القديمة المرمية على الارض ، جلسنا على خشبة عريضة متربة ، أحد طرفيها مرتفع يستند الى حجر كبير ساقط من الجسر، والطرف الاخر ، يهبط الى الارض ، وقد نال من الخشب عطب ، فتحللت عضلاته ولكن بقي عودها قوي الاسر . والعجلة الضخمة تكاد تسقط على جنبها ، في توازن يمكن أن يكون منذرا لولا أنه عريق الثبات وقد غاص جانب منها في الطين الجاف ، وتوحي، في هذا الوضع الغريب، في هذا الغروب الغريب ، برهبة الاشياء المهجورة التي يرودها حضور غامض . ومياه النيل العريض تصطفق بصوت اصطدامات مائية متعاقبة ومتغيرة الايقاع فيخفق لها قلبي في توجس وفرح ، وتنعكس السماء على الطمي الداكن الاحمرار .

انحسر طرف جلابيتها عن كاحليها اللذين أدهشتني دقتهما ونعومتهما ، وأثارتني . وهي تجلس ، وتسوي نفسها على انحدار الخشبة ، فيبرز أعلى فخذها من وراء الجلابية مدورا ومحبوكا يبدو لعيني غض الملمس . وفي نور المغرب رأيت وجنتيها متضرجتين بنار نضرة ، وكانت أنفاسها متسارعة ، وهي صامتة على غير عادتها ، تلمعان بسواد ساطع . كان هذا الاحمرار الذي أعرف أنها تصنعه عندما تبلل قطعة حمراء من القماش المشبك تبيعها البلاّنة لصبايا القرية ونسوانها فيبللنه بالريق ويمسحن به الخدود والشفاه . وكان ذلك هو زواقها يوم الاحد عندما تأتي الى الكنيسة . وكنت أعرف أن أمها تدعو عليها وتستمطر لها التوبة من الله عن هذه النيلة التي تعملها في نفسها ، وتدعو لها بالعدَل وابن الحلال الذي يكفيها ويشكمها ، وانها هي تحلف بحياة الصليب أنها لم تعمل شيئا وان هذا اللون رباني وما ذنبها فيه ، ثم توقد شمعة أخرى للاستغفار من الحنث بيمين الصليب ، وتصلي بحرقة وتترقرق عيناها بالدموع في القداس .

وسمعتها وهي تقول : أنت ستعود الى الاسكندرية بعد قليلَ أو كثير ، في اخر الصيف ، لتذهب للمدرسة. أهذا ضروري ، المدرسة ؟ لماذا لا تشتغل ، وتكسب ؟

ولم أجرؤ على فهم ما تقول . كانت جلابيتها الفلاحي الملونة تسقط الان على جسمها المتوفز ، كأنها حيوان في عز فتوته . كانت فعلا حيوانا أنثويا في عنفوان الشباب .

وفكرت أنها تكبرني على الاقل بثلاث أو أربع سنوات . وقلت لنفسي ان هذا لا يهم .

وكأنني رددت عليها : أشتغل ؟ أنا ؟

وسمعتها تقول : آه تشتغل ، وتأخذ ما تريد . ألست رجلا كالرجال الذين يشتغلون ، ويكسبون ؟

ولم يكن قد خطر ببالي أنني لست كالرجال الذين يشتغلون ويكسبون . ولكنني لم أكن أعرف كيف أجيب . وكنت أعرف أنني هنا في نطاق خاص لا رد عليه ، يخالف كل ما أعرفه . وخيل الي أنني آخذ التوجيهية ، وبعدها الجامعة أيضا . سأشتغل ، طبعا .

وسمعتها تضحك وعرفت في ضحكتها مرارة لا شأن لها بي : يوه .. موت يا حمار لغاية ما يجي لك العليق ..!

ورأيتها تقوم فجأة ، وانسدلت جلابيتها على جسمها الذي توتر بيقظة مفاجئة وهي تصعد الجسر الوعر برشاقتها النافرة ، وردفاها يتحركان في ايقاع متناوب سريع ، وهي تمد ذراعيها بتوازن حرج ، وارى ، وانا تحت ، صدرها الذي لا يسنده شيء ، يهتز وهي ترقى الجسر ، وتثب الى سلامة حافته .

وانا ايضا اتسنم انحدار الجسر لا اصل ابدا الى اعلاه ، خطواتي لا تنتهي ابدا ، والسماء عالية . ولا تبدو لي غرابة على الاطلاق في هذا الصعود المتصل الذي لا بطء ولا سرعة فيه ، كأنني لا اتحرك ، وكأن الجسر ما ينى يزداد علوا كلما واصلت الارتفاع عليه . لا دهشة ولا تساؤل ، بل ارهاق طويلَ . كنت اعرف ، في هذا الصعود الذي لا اكسب فيه ولا اخسر ارضا ولا زمنا ، ان نسخة الاهرام الوحيدة سوف تصل الى القرية بقطار بعد الظهر ، وسوف يأتي بها ساعي البريد الطواف على حماره الميري الابيض، وسوف اقرأ في آخر هذا الصيف، ان تشيكوسلوفاكيا قد سقطت . وكنت انا ايضا ، كأقربائي الفلاحين ، اجد صعوبة في نطق اسم هذا البلد الصغير البعيد ، وكنت ارى حروف المطبعة الكبيرة المسطحة فى العناوين الممدودة بالاحمر على عرض الصفحة الاولى ، ونص اعلان الحرب على المانيا ، بتوقيع الملك جورج السادس .

ارى الحرس العسكري يقف باناقة وجمود ، على باب مينا هاوس ، وسيارات الجيب العسكرية وعليها المدافع الرشاشة مصوبة الى الشارع . وكانت لوريات الامن المركزي في الظلام ، مكتظة بالجنود ، غامضة المعالم وثقيلة .

دخلت من الباب الزجاجي العريض المائي النسيج، الانوار الملونة المعلقة في السقف بحلقاتها الصفيح المخبوءة بمكر الصنعة تسقط على السجاد والبلاط الرخامي الفسيح . منصات الموجني المصقولة ، هرير التليفونات واصواتها النسائية بالانجليزية والعربية، المقاعد المنخفضة تغوص فيها امريكيات سيقانهن عظيمة مكشوفة ، وعرب بالعقال السعودي والطاقية الكويتية المخرمة والجلاليب الحريرية التي تتخايل من ورائها ارجلهم الدقيقة فيما يشبه بذاءة لا تكاد تلحظ ، عيونهم المسدودة تحت حواجب عميقة السواد تطل من وجوه في لون الزيتون، والسفرجية بطرابيشهم واحزمتهم الحمراء يتحركون حركات الدمى، البوتيكات وشركات الطيران خالية وانوارها متقدة ، كأنها منسية ، من وراء الابواب الزجاجية المغلقة وآلات التيكرز من وراء الابواب الشفافة تدق بخفقات معدنية موزونة الموسيقى ، وارى مصابيحها الصغيرة مشتعلة بنار صفراء .

كنت اسير عبر الردهة الباذخة لا تحتجزني ومضاتها كأنني اعرف طريقي .

كانت الصهاريج الالومنيوم الهائلة تطن ، وتفح بخارا ساخنا في سحابات بيضاء لها وشيش ممتلىء يخبو ليصعد من جديد ، في دقات منتظمة . وكانت المراجل المتينة القوام تغلي بنيران كهربية تصدمني قوتها صدمة لا تنفرج ، والانابيب الضخمة تمتد في خطوط مستقيمة الزوايا وترتفع حتى تخترق السقف الشاهق ، ومنصات المطبخ الحديدية عليها خطوط بارزة تسيل بزيت شفاف . كنت ابحث عن شيء اعرف انني لن أجده هنا ابدا مع ذلك، واوصل البحث في لهفة . ولم يكن من الممكن ان أسأل الطباخين بقاماتهم الطويلة وقبعاتهم القماشية البيضاء العالية وقد تهدلت قليلا من الحر والبخار ، وهم يعكفون على طواجن نحاسية ضخمة كأنها أقواس دائرية مقتطعة من خزانات البترول التي نجدها بالقرب من محطات السكة الحديد ، يقلبون ما فيها بمغارف خشبية طويلة ، داكنة من البلل ، ووجوههم لا تعبير عليها .

واندفعت ، في بحثي ، بين الطباخين الذين لم يشعروا بي ، كأنني اصلا لست هناك ، الى هذه المواعين اللامعة الجدران . وانحنيت عليها ، كأنما انتظر ان اجد في داخلها ما انشده .

الطيور الضخمة التي تعد للوجبات العامة، مسلوخة منتوفة الريش ، مشدودة الجلد . أعرف انها حية ، ما تزال تنبض . تغوص قليلا في عجينة المايونيز الطرية المصفرة الكثيفة ، ولها رؤوس مقلوبة على وجوهها تتحرك حركة واهنة ، عيونها مدفونة في العجين المتخمر بفقاعات كبيرة تتضخم ثم تنفجر بصوت بذيء ، ولها من الخلف انحناءات مألوفة ، حليقة ومدورة ، تنتهي الى اعناق شبه بشرية ، ظهورها نصف الفارقة تنتهي الى سيقان مدكوكة العضل ملوية عند الركبة ، لا يبدو غير نصفها العلوي . وكان انسحابها الانثوي غضا وله جاذبية تقبض

الاحشاء ، تحت استدارة الارداف المليئة ، نصفها فوق العجين ونصفها غارق فيه . الافران الضخمة تئز تحتها، والعجينة تغلي وتفور ، والاطراف شبه البشرية تبدو كأفخاذ بدينة سخنة، يلتقطها الطباخون بمغارفهم فتنفصل بسهولة عن المفاصل ، كأنها من غير عظام ، ويقذفون بها الى الصهاريج التي تنفث سحابات البخار ، وعندما ترتفع في الهواء كانت أقدامها تبدو ناعمة الجلد واصابعها وادعة ومثيرة .

ورجعت ، أجري هادىء الانفاس ، لم اجد ما أبحث عنه .

وفي هذا العالم السفلي وصلت الى المصعدالواسع الذي لا باب ولا سقف له ، أرضه من أعواد الخشب الرفيعة المتجاورة على حديد مسطح ، وبها لزوجة من أثر الشحم والدهن القديم . هبط المصعد بي في بئره المعتمة العميقة القرار ، حباله المعدنية المضفورة ، امام عيني ، تهتز في توتر مستمر النبض . حتى خبطبالقاع فجأة في هدير مكتوم ، وخرجت من كسر مفتوح في جدار رقيق منفصل ، مقام على طوبة واحدة .

ما زلت أجري في حقل لا نهاية له من التراب الموحل . الانقاض حولي ترتفع وتنحدر في اكوام هائلة متتابعة حتى مدى البصر . قضبان حديدية ، كأنها شرائط ورق ، تخترق هدد الاحجار المتساقطة بالتواءات مدببة وكأنها حية ما زالت ترتعش ، وتطعن السماء الداكنة الحمرة ، اطراف الافق ، عند النيل ، تشتعل بدخان بنفسجي قاتم كثيف الاحتراق .

لم يكن لجسمي وزن وانا اصعد واهبط فوق الاكام وفي بطون الارض ، والاتوبيسات، كأنها لعب صغيرة نصفها اسود متفحم من النار ونصفها ما زال يبدو في نور السماء احمر اللون بقذارته المعتادة ومحركاته المكشوفة ، وقد قذف بها فوق ركام الحجر والحديد ، مقلوبة ومنبعجة وظهورها قد خسفت ومقاعدها ناتئة تخترق زجاج النوافذ العريضة الذي لم ينكسر . ارضية كوبري ٦ اكتوبر العلوي قد انقلبت واصبحت في امتدادها الرأسي النحيل حائطا عموديا يقف في عرض النيل ، سقطت كتل الاسمنت الضخمة ، ما زالت متلاصقة ولكنها تنبسط جدارا رفيعا يشق السماء ، انزلقت عليها السيارات وهي تنقلب ، وغاصت في النيل ، لا يدل عليها الا فقاعات من الهواء تنفجر بهدوء على سطح المياه السوداء .

ويبدو كوبري قصر النيل قريبا مني ، مكسورا من منتصفه كأنه مقطوع بسكين حادة ، ما زال نصفهمستويا يهتز اقلَ اهتزاز ، سياجه معلق ، بأعمدته الرقيقة القصيرة ، لا يحيط بشيء ، في الفراغ ، فوق الامواج القاتمة الخضرة وعليها حلقات متكاثفة الورق من نبات ورد النيل الغليظ . برج القاهرة يميل بارزا من بين النباتات ، يمتد من الجسر الى قلب النيل ، يبدو مسدودا وتتموج حوله دوامات صغيرة ، وبجانب طرفه الساقط على الارض تتأرجح في مياه الشط معدية سليمة الاخشاب وكاملة وفيها مجدافان ، يرقد فيها المراكبي وزوجته واولاده ، هادئين ، كأنهم نائمون ، وما زال وابور الجاز مشتعلا يفح ، وبجانبه طبخة سمك لن يأكلها الان احد .

ورأيت الكورنيش وميدان التحرير ومبنى الاتحاد الاشتراكي القديم والهيلتون الجديد ومبنى ماسبيرو العريض المستدير بأبراجه واعمدته اللاسلكية كلها قد تحولت الى هدم وحطام . ربوات صامتة ومظلمة فيحقل موحل يهبط الى وهدات غائرة . البيوت القديمة بمشترياتها التجارية ما زالت قائمة ، وما زال الغسيل منشورا عليها ، في وسط امتداد الانقاض التي تنبسط في تلال مضطربة بين الكباري الساقطة . علامات النيون المقطوعة ما تزال تشتعل بالاخضر والاحمر من غبرجدوى، حتى ميدان رمسيس ومحطة باب الحديد . التمثال العظيم منكفىء وجهه في التراب ، تنبثق من فوقه اندفاعات المياه الرفيعة الخطوط من نافورة ما زالت تعمل بانتظام وآلية ، تحت احتراق السماء الكثيب .

ورأيت في وسط بركة من الماء الاحمر الساكن وجه لينده، مقطوعا وهادئا وما زالت على شفتيهاابتسامة صغيرة كأنها تحلم او تسخر ، وشعرها الاسود الناعم الطويل ، من تحت المدورة البيضاء المفضنة ، يطفو فوق سطح الماء الضحل ، تهتز خصلاته الرقيقة اهتزازا صغير التموجات . وقلت لنفسي : أوفيليا الفلاحة التي لم أفهمها .

وكانت تتحرك في الطين افراس البحر، سوداء الجلد غليظة القوام ، لها اقدام مفلطحة وخراطيمتتحرك كالشفاه وتتماس في بحث بطيء عن لمسات كأنها قبلات، ولها اصوات كأنها لغة . وجاش قلبي بالبكاء ، أخيرا ، وانهار ، عندما سمعت منها نبرات من كلمات خيل الي انني اعرفها ، كلمات من لغة قديمة عذبة نسيتها، ولكنني كنت اعرفها ، وكأنها تبحث عن حنان ، عن شوق تدرك انه مفقود ، وتدرك انه كان هناك ،وانه لا ينتزع ولايموت حتى في ظلمة الاحشاء المرضوضة .

وكنت أسمع انفجارات صغيرة متقطعة لها اصداء موحشة ، طلقات بنادق ودمدمة مدافع رشاشة وقرقعة قنابل يدوية ، متناثرة ، تلوح كأنها لن تنقطع .

وكنت اعرف انهم تحت ، هناك . يتحركون وسط الاجهزة ويحركون الاشياء ، في انفاق محفورة على اعماق بعيدة في الارض . مصمتة ومعزولة تماما ، منيرة بضوء معدني باهر ثابت الدرجة لا ينطفىء ولا يصدر عنمصابيح بل تشع به الجدران المنسابة المصقولة ، وتحميها مدكات هائلة الحجم من الاسمنت والحديد عليها اقواس

الرادار التي ما تفتأ تدور ، بلا توقف . وكأنهم هم ايضا من معدن اسود . عيونهم مدورة ،ثابتة ، اجسامهم محسوبة وعقولهم تنبض بذبذبة منتظمة الايقاع متصلة ولا تغفو . وكنت أعرف أنهم هناك ، تحت ، آلات فيها حياة ، في قلب هذه الاليات الضخمة التي فيها حياة ، خططوها هم لانفسهم وبأنفسهم تخطيطا لا يناله ادنى خطأ في التصميم ، وهم مع ذلك خائفون .

وفي الليل ، وتحت قرقعات تمزق لحم السماء الميت بطعنات لها ضوء عقيم ، كانت اقدام الناس تدوس فوق الحطام ، وكان هديرهم المدمدم في الظلام يصل الى قلبي فيملؤه ، ويفيض ، بالماء الداكن القديم ، وعندما عدنا بالسيارة في الفجر المظلل بغمام ساخن كان طوفان الناس يغرق شوارع المدينة المتهدمة بالجلاليب والقمصان والبنطلونات ، والفلاحات بالملبس الاسود ، والرؤوس الحليقة الصلبة العظام التي سهرت طول الليل في زحمة القطارات تطفو متلاحقة بين واجهات البيوت الكالحة ، ووراء احجار السلالم المنهارة ، وحول العمود الجرانيتي المستقيم المستدير الذي يرتفع ، لم ينله خدش ، وقمته ما زالت خاوية . ورأيت بينهم من يحمل فأسه ومقطفه على كتفه ، وهو يلبس جلابيته الوحيدة المتغضنة المغسولة . وكانت الكلمات المكتوبة بخط سريع وملهوج على لافتات القماش والخشب والورق المقوى ، وصور الرجل التي لا عداد لها ، مائلة ومنتصبة ، تعوم فوق الطوفان ، تبدو من كثرتها كأنها لا تقول شيئا . وكانت الاوتوبيسات الحمراء خفيفة الوزن الان تفرغ حمولتها في ميدان التحرير وتعود بسرعة من اي طريق الى خطوط السكة الحديد في ميدان المحطة الفسيح الخرب ، وكأنها تسابق موعدا قد أزف ، بل فات .

كنت أسمع هديد الاقدام تخوض في المياه القليلة الغور وتستند الى انقاض الاحجار التي غاصت في الطين .

واعرف انه لن يوقفهم شيء ، وانهم ينصبون في اعداد لا تنتهي ، وانهم صامتون الان . ※

القاهرة

※ نص من رواية « راما والتنين » المعدة للطبع .

دار الآداب تقدم

الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائزة فمينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميلا ، يبحث أحدهما عن الآخر ، فيلتقي به ثم يضيعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحنّ اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميلا ، ابنة جبال النمسا ، أن تقاتل من أجل العدالة . وتلتقي في هافانا بشاب فرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنها تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقد ايميلا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمعركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترة ، ومن باريس الى همبورغ ، تضطلع بقدرها حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هؤلاء الابطال . فهو لحمهم ، وعذابهم ، وألمهم . ان سعادة بوريس وايميلا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلهما ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنية حب في مأساة عصرنا . توكيد ارادة للحياة وللنضال .